عقيدة الخلاص في اللّاهوت المسيحيّ بين الحصريّة والشّموليّة والتّعدّديّة الدّينيّة

ياسين سلمان آل سليمان

باحث سوري، حاصل على ماجستير تخصص التفسير وعلوم القرآن من جامعة المصطفى العالمية، وأستاذ في هذه الجامعة

ملخّص

الخلاص هدف مهمّ في جميع الأديان، فكلّ متديّن يرغب في نجاته، غير أنّ هذا الهدف شابه الكثير من الانحرافات في اليهوديّة والنّصرانيّة، وذلك بسبب الإيمان الخاطئ منهم بالخطيئة الأولى، وكان لهذا الأصل دورٌ محوريٌّ في العقيدة النّصرانية بشكل خاصّ، ارتبطت فيه عقيدة الفداء ارتباطًا وثيقًا، وقامت الدّيانة المسيحيّة على فكرة،هي أنّ من لم يؤمنْ بأنّ المسيح عليه السلام قد صُلِب فداءً عن الخطيئة الإنسانيّة، فإنّه لن ينجوَ ولن يخلص أبدًا، ولكنّ الخلاص المنشود تعرّض_على مدى التّطور التّاريخيّ للعقيدة المسيحية_ إلى بعض التّوسعة، فطُرِحَت بشكلٍ رسميٍّ النّظريّة الشّموليّة في المجمع الفاتيكانيّ الثّاني، رغم محافظتها على الفكرة الحصريّة التّقليديّة من النّاحية المضمونيّة، ومخالفتها فقط من النّاحية الشّكلية، لتتطوّرهذه النّظرية، وتطرح تحت عنوان التّعدّديّة الدّينيّة، الّتي لاقت رفضًا عامًّا لكونها لا تنسجم مع البحث عن الحقيقة، والّتي هي الهدف الفطريّ للإنسان. وليس الإسلام بمعزلٍ عن هذا الهدف، فهو دين ينشد تحقيق سعادة الإنسان الدّنيويّة والأخرويّة، وبالتّالي، فإنّ له بيانه الخاصّ، ورؤيته الخلاصيّة المنسجمة مع رؤيته الكونيّة والمنبثقة عنها.

الكلمات المفتاحية:

الخطيئة الأولى- الخلاص الحصريّ- الخلاص الشّموليّ- التّعدّديّة الدّينيّة- الخلاص الإسلاميّ.

مقدّمة:

من خلال التّتبع، يتّضح لنا أنّ الخلاص أصل محوريّ من أصول عقيدة المسيحيّة، بل يمكننا القول إنّه المحور الّذي تدور حوله مجمل الدّيانة المسيحيّة، فهو مرتبطٌ ارتباطًا جذريًّا بنظرة العهدين للخطيئة الأولى، وكذلك متوقّف على أصل آخر عند المسيحيّين وهو الفداء. وعليه فإنّ الوقوف على هذا الأصل وفهمه فهمًا دقيقًا، يستدعي فَهْم هذين الأصلين أيضا: وهما الخطيئة الأولى والفداء.ولا يخفى أنّ هناك مذاهبَ وتياراتٍ متعدّدة نشأت في المسيحيّة،وكان للاختلاف في هذا الأصل دورٌ محوريٌّ في نشوئها؛ فمنها من يرى بأنّ الإيمان وحده كافٍ في الخلاص، إلى آخر يرى لزوم اقتران الإيمان بالعمل، ومن جهة أخرى ذهب البعض إلى اختصاص الخلاص بالنّصارى، ومنهم من يرى بأنّه حاصل للجميع، وعليه فتحرير هذه المسالة له أهمية بالغة في فَهْم العقيدة المسيحيّة أولا، وكذلك نظرة المسيحيّين للآخر. ثمّ إنّ هذا الاعتقاد_ وإن كان له حيّزٌ كبيرٌ في العقيدة المسيحية_ جعلها تعرف به، ولكنّه موجود في جميع الدّيانات، غير أنّه يأخذ أشكالا مختلفة تنسجم مع الرّؤية الكونيّة الخاصّة لكلّ دين، وبالتّالي فلابدّ من توضيح نظرة الدّين الإسلاميّ، لمجمل القضايا المرتبطة بهذا الموضوع.

وعليه فإنّنا نسعى من خلال هذا البحث للإجابة،عن سؤال مهمّ وهو، ماهي عقيدة الخلاص في اللّاهوت المسيحيّ؟ وعلى ماذا ترتكز؟ ثمّ ماهي مدى سعة هذا الخلاص عندهم؟ وكيف ينظر الإسلام إلى السّعادة الأخرويّة؟ متّبعين المنهج التّوصيفيّ والتّحليليّ.

■ أولا: مفهوم الخلاص المسيحيّ وركائزه

في الكتاب المقدّس، نلاحظ تفاوتًا في معنى الخلاص بين العهد القديم والعهد الجديد، ففي قاموس الكتاب المقدّس، يُراد بالخلاص في العهد القديم النّجاة من الشّرّ أو الخطر...أمّا في

العهد الجديد فقد خلع عليها معنى آخر، وهو إنقاذ الخُطاة بالإيمان بيسوع المسيح... وينطوي تحت معنى الخلاص في العهد الجديد غفران الخطيئة، والخلاص من ربقتها ونتائجها، وتطهير النّفس، وأفراح الأزلي[1].

ومن الملاحظ أنّ الكتاب المقدّس استعمل هذه المفردة في معناها اللّغويّ كذلك، ولكن يظهر المراد من المعنى الاصطلاحيّ في تحديد المضاف لها، وعليه فأيّ خلاص هو الأصل العَقَدي في الدّيانة المسيحيّة، وعلى هذا سار «لبيب ميخائيل» في تحديد معنى المصطلح في يقين الخلاص، فيقول: «الواقع أنّ كلمة الخلاص في اللّغتين العبرانيّة واليونانيّة، تعني النّجاة، والأمان، والحفظ، والشّفاء، والصّحّة. فالإنسان الخاطئ في حاجة إلى النّجاة من سلطان الشّيطان، والأمان من دينونة الله العادلة، والحفظ في يد المسيح القويّة، والشّفاء من لعنة الخطيّة، والصّحّة الرّوحيّة الّتي تكفل له القوّة والانتصار، وهو يجد في خلاص الله كلّ هذه البركات»[2].

ومن ثمّ يذكر أهمية هذه العقيدة وهذا الأصل في الدّيانة المسيحيّة فيقول: «وقد تجمّعت في كلمة(الخلاص)الفريدة كلّ تدبيرات الله، فهي تحوي التّبرير، والتّبني، والفداء، والكفّارة، والغفران، والتّقديس، والتّمجيد، وفي عبارة واحدة نقول: «إنّها تحوي كلّ خطّة الله بالنسبة للإنسان»[3].

ومن هنا فإنّ معنى الخلاص يتعدّد ويختلف باختلاف ما يضاف إليه. ولهذا فقد ذكر البعض، أنّ له معانيَ متعددة في الكتاب المقدّس، كالخلاص من الموت، ومن ضيقات الحياة، والأرواح الشّريرة، ومن الخطيئة. «لقد وردت كلمة الخلاص في الكتاب المقدّس بمشتقاتها زُهاءَ خمس وأربعين وأربعمئة مرّة، ووردت في العهد الجديد فقط مئة مرّة،منها أربع عشرة مرة عن الشّفاء من المرض وإخراج الشّياطين، وعشرين مرة عن الإنقاذ من الموت والمخاطر، وست وستين مرّة بالمعنى الرّوحيّ»[4].

1- قاموس الكتاب المقدّس، حرف الخاء، كلمة خلاص:238.
2- ميخائيل، ل:يقين الخلاص:7.
3- ميخائيل، ل: يقين الخلاص:7.
4- عجيبة، أ:الخلاص المسيحيّ ونظرة الإسلام إليه:49:46.

ورغم تعدّد هذه المعاني، والّتي يمكننا أنّ نقول إنّها تعدّد مصداقيّ لا مفهوميّ، فإنّ جميع مصاديق الخلاص الّتي ذُكرت في الكتاب المقدّس نُسِبت إلى الله. ومعرفة الله بحسب دائرة المعارف الكتابيّة هي معرفته كونه المُخلِص وحده لا سواه، وقد تطوّرت هذه الفكرة في العهد القديم، من كون الله هو الّذي خلّص بني إسرائيل من المحن المتتالية، والّتي وردت في سِفْر»الخروج»، كتخليصهم من فرعونَ، والغرق في البحر، وغيرها من المواقف الصّعبة الّتي مرّوا بها، لتصبح مؤثّرة في نظرتهم للخلاص الأخرويّ.

وهذا الخلاص بحسب العهد القديم، وإن كان منسوبًا إلى الله، غير أنّه قد يحصل بواسطة؛ أمّا في العهد الجديد، فقد أخذت هذه المفردة الطّابع الدّينيّ، والخلاص الأخروي، والّذي يحصل بالمسيح الّذي هو خبز الحياة.

ولا طريق إليه الاّ بالمسيح، والّذي كان موته هو الطّريق لتحقيق هذا الخلاص. لتظهر هنا فكرة جديدة مرتبطة بفكرة الخلاص وهي الفداء، والّتي تّعتبر من الأركان الأساسيّة للعقيدة النصرانيّة[1].

ولهذا فقد عرّفت دائرة المعارف الكتابيّة الخلاص بأنّه:»هبة مجّانيّة من الله البارّ، عاملا بالنّعمة نحو الخاطي غير المستحقّ، ولكنّه بعطية الإيمان يتّكل على برّ المسيح، الّذي فداه بموته وبرّره بقيامته»[2]. وهذا التّعريف يرتكز على أُسسٍ معيّنة، وهي أنّ الإنسان بما هو نوع مخطئ ويستحقّ العقاب، ولكنّ الله الرّحيم أوجد حلاّ لهذه المعضلة، فقدّم أُضحيةً تليق بحجم هذه الخطيئة، وتكون فداءً عن جميع أفراد النّوع وهي المسيح.

فالخلاص الآنيّ الدّنيويّ الّذي كان يرشد إليه الأنبياء السّابقين للسّيد المسيح، والّذي كان يحصل عليه شعب إسرائيل من خلال التّوبة والرّجوع إلى الله، لم يكن كافيًا لتخليص النّوع الإنسانيّ من الخطيئة الأصلية الّتي جُبِل عليها، ولهذا فقد مهّد العهد القديم إلى المسيح المخلّص الحقيقيّ، القادر على تقديم فداءٍ يَليق بتلك الخطيئة[3].

1- انظر: دائرة المعارف الكتابية:317:319.
2- دائرة المعارف الكتابية:319.
3- انظر: أحد رهبان برية القديس مقاريوس، الخلاص الثمين:14.

1. الخطيئة الأولى بين اليهوديّة و المسيحيّة والإسلام

لمّا كان مفهوم الخلاص مرتبط ارتباطًا جذريًّا بالخطيئة الأصليّة، لزم الوقوف عليها ليتّضح هذا الأصل بشكل أجلى.

لقد اتّفقت الأديان الثّلاثة على أصل وقوع الخطيئة، ووقع الاختلاف في تفسيرها، وترتيب الآثار على ذلك، ومن أهمّ هذه الآثار في العقيدة النّصرانيّة، هي عقيدة الخلاص الحاصلة بالفداء.

2. الخطيئة الأولى في اليهوديّة

أمّا قصّة هذه الخطيئة فقد ذُكِرَت في العهد القديم، حيث ورد فيه أنّ الحيّة سألت حوّاء:» هل تأكلون من شجر الجنّة؟». فأجابت:» نعم، إلّا شجرة واحدة في وسط الجنّة». فأغوتها الحيّة، فأكلت وأطعمت آدم منها، وهذا ما أوجب غضب الله، فطرد الحيّة ولعنها، وكذلك طرد حوّاء وعاقبها، بأن جعل النّسل منها تحمل وتلِد، وكذلك عاقب آدم، وأخرجه من الجنّة، وجعله يأكل من تعبه.

وقد اختلفت آراء المفسّرين للكتاب المقدّس، حول المقصود من الحيّة، فهل هي الشّيطان؟ أم أنّها حيّة حقيقية استخدمها الشّيطان، أو أنّ حوّاء هي المسؤولة عن هذا الإغواء مباشرة.

وبحسب سِفْر التّكوين، فإنّ الشّجرة الّتي حرّمت على آدم وزوجته، هي شجرة معرفة الخير والشّرّ[1].

لقد أثّرت هذه القصّة في الدّيانة اليهوديّة بشقيها العقائديّ والتّشريعي، ومن آثارها العقائديّة ما ظهر في الصّفات الإلهية، من وصْف الله بالظّلم والقسوة، وقد تكرّرت هذه الصّفة في أسفار العهد القديم، فتراه لا يغفر لأبناء الآباء، ويعاقب الجيل الثّاني والثّالث[2] على لسان داوود أنّه صُوّر بالإثم، وحبِلت به أمّه بسبب الخطيئة[3] وكذلك الجهل، فهو الّذي ينادي آدم بحسب سِفْر التّكوين،أين أنت؟ ولماذا تختفي؟ وغيرها من التّساؤلات الّتي أسّست لهذه النّظرة

1- سِفْر التّكوين:18:16. (انظر: شاهين، أ:الخطيئة الأولى بين اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام دراسة مقارنَة:22-56).
2- سِفْر العدد:14.
3- المَزامير: 51، 5.

اليهوديّة، وتستمرّ لنرى ما يُشير إلى هذا الاعتقاد تجاه الله عندهم، فتراه يحتاج إلى ما يُعينه على التّمييز بين بني إسرائيل والمصريّين، ولذلك يطلب موسى من بني إسرائيل أن يميّزوا بيوتهم بالدمّ.

وأمّا في القضاء والقدر، فيعتقد اليهود أنّ معاناتهم سببها، هو تلك اللّعنة الأبديّة الّتي استحقوها بسبب خطيئة آدم، وأنّهم مجبورون على ارتكاب المعاصي، وهذا ما يظهر من خلال تبرير يوسف فعل إخوته، وأنّه مِنَ الله ونسبة الشّرّ إلى الله.

وأمّا من النّاحية التّشريعية، فقد اعتبرت أهمّ صفات المرأة، وهي الأمومة، من نتاج اللّعنة الّتي استحقتها حوّاء، وكذلك تتحوّل إلى نجاسةٍ مُطلقةٍ في فترة حيضها، فتنجّس كلّ مَنْ يمسّها، وكلّ ما حولها[1] ولذا فاليهود سلبوا المرأة حقوقها، وامتهنوها وتعاملوا معها وكأنّها عبدة للرّجل.

3. الخطيئة الأولى في المسيحية

لقد ورثت المسيحيّة الاعتقاد بالخطيئة من اليهود، وذلك من خلال الإيمان بما جاء به العهد القديم، والّذي سبق وأشرنا إليه، وكذلك الأمر فقد كان لهذا الاعتقاد أثرًا واضحًا في الدّيانة المسيحيّة الّتي قدّمت نفسها كمعالجٍ للمشكلة، الّتي جُبِل عليها الإنسان، وقُدّر له أن يدفع ثمنها طول حياته، وهي الخطيئة بحسب التّصور اليهوديّ، وكان العلاج بصَلْب المسيح ليكون فداءً للبشريّة، ويُخلّصهم من آثار تلك الخطيئة، الّتي حملوها عُنوةً، وبحسب نظرهم فإنّ الفادي ليس شخصًا عاديًّا، ولذلك انبثق عن اعتقادهم بالخطيئة أصل عقائدي خطير جدًّا، وهو بُنوّة المسيح ولاهوتيته، ومن ثمّ فإنّ الفداء كان لجميع البشر، ومنه اتّسمت المسيحيّة بالعالميّة.

4. الخطيئة الأولى في الإسلام

لقد وردت هذه القصّة في القرآن الكريم، وهذا مُشْعِر بأهميتها، ولكن من خلال التّأمل، نلاحظ أنّ القرآن قد عرضها بأسلوبٍ مختلفٍ تمامًا عمّا تمّ اعتماده ونقله في العهد القديم، والّذي أنتج منظومة عقائديّة فاسدة لدى اليهود وكذلك المسيحيّة.

فالعرض القرآنيّ لهذه القصّة لم يُبتلَ بأيّ نقصٍ من أيّ جانب، فلا هو نَسَبَ للذّات الإلهيّة

1- لاويين:15، 30:19.

صفات النّقص، ولا أدّى إلى احتقار المرأة، ولا هو اعتبر أنّ هذه الخطيئة لعنة أبديّة للنّوع البشريّ، حتّى يضطر العقل للتّخلّص منها، ويؤدّي إلى فساد جديد كما قدّمه النّصارى.

ومن الآيات الّتي تناولت هذه القضية بشيء من التّفصيل الآيات من31-38 من سورة البقرة وبمقارنة بسيطة بين هذا النّصّ النّوراني، وما تقدّم الإشارة إليه من النّصوص والتّفسيرات السّابقة، يتّضح لنا الفرق الجوهريّ بين النّظرة الإسلاميّة لقصّة الخلق، والنظرة الكتابيّة له، ومن أبرز الفوارق نجد:

- التّكريم الإلهيّ للإنسان، والّذي استدعى سجود الملائكة له في قبال اللّعنة التّكوينية للنّوع الإنسانيّ، الّتي عرضها العهد القديم وسار عليها النصارى.
- لم يكن الهبوط بحسب القرآن عقابًا وتنقيصًا، فقد صرّح بداية أنّ الله خلق آدم لخلافته في الأرض.
- لقد فضّل اللهُ آدمعليه السلام على جميع الملائكة بالعلم، الّذي منحه إيّاه ولم يتخوّف ويهاب، هذا كما عبرّ العهد القديم، بأنّه منعه عن شجرة المعرفة، لكيلا يشاركه في العلم.
- لقد سار آدم وزوجته ضمن التّقدير الإلهيّ لخلق النّوع الإنسانيّ، الّذي قُدّر له أن يتكامل قربًا من الله تعالى بعمله، رغم وساوس الشّيطان، ولذلك عبرّت الآيات في ختامها، أنّ من يتّبع هدى الله لا خوف عليه.

هذه المفارقات المفصليّة بين الرؤية الإلهيّة القرآنيّة، والرؤية الكتابيّة في عرض هذه القصّة المفصليّة، توضح بشكل كبير عدم وقوع الإسلام في انحرافات عقائديّة، وتورّط كلّ من اليهوديّة والنّصرانيّة فيها.

وممّا تقدّم تتّضح أهميّة الرّؤية حول هذه المسالة، وارتباطها الجذريّ بموضوع الخلاص،وخصوصًا في العقيدة النّصرانيّة، فالخلاص المنشود بنظرهم هو من هذه الخطيئة، وإنّما يحصل من خلال الفداء.

5. الفداء مفهومه وحقيقته في الدّيانة المسيحيّة

نتيجة لتبنّي العقيدة المسيحيّة للخطيئة التّكوينيّة النّوعيّة، كما تقدّم، ابتكرت ما يُسمى بأصل الفداء، وذلك في سبيل تقديم العلاج الملائم لهذه اللّعنة الأبديّة المرافقة للنّوع الإنسانيّ منذ

الخليقة إلى يوم القيامة، وبحسب تلك العقيدة فإنّ تلك اللّعنة المتمثّلة بمخالفة آدم وعصيانه ليست أمرًا محدودًا، ولهذا فإنّ التّكفير عنها يجب أن يكون متناسبًا مع حجمها، ومن هنا انبثقت هذه الفكرة، فكان المسيح _وهو الله المتجسّد_ وحده القادر على مقابلة هذه المعصية.

ومن تعريفات الفداء نذكر:

«فداء الإنسان من الخطيئة الأصلية الّتي انتقلت إليه من أبويه آدم وحوّاء، فتحمّل وِزْرها وشقيّ بسببها» [1]

وفي قاموس الكتاب المقدّس، «تشير لفظة الفداء في العهد القديم في أغلب الأحيان، إلى خلاص الجسد. وأمّا في العهد الجديد فتشير إلى الخلاص من الخطيئة، وإلى الخلاص من رِقّ النّاموس، وإلى بذل الجهد في استعمال الوقت في خدمة الله»[2]. كما أنّه لم تكن هذه الفكرة ذات أثر يُعتدّ به في الأناجيل الأربعة، ولكنّها على العكس من ذلك في رسائل بولس، وممّا ورد فيها «الّذي لم يشفق على ابنه، بل بذله لأجلنا أجمعين، كيف لا يهبنا أيضا معه كلّ شيء»[3].

لقد واجهت النّصرانية كثيرًا من الإشكالات بسبب هذه الفكرة، ولتبرير ذلك قالوا بأنّ هذا هو مقتضى العدل الإلهيّ، الّذي هو من صفات الله، لكون الإنسان أقلّ من أن يؤدي حقّ المعصية في قبال الله، فإنّ الله بمقتضى رحمته تحمّل هذه المسؤوليّة، وكان الفداء بأن يُصلَب ابنه على خشبة، ويحمل خطايا النّوع الإنسانيّ.

تساؤلات وانتقادات

ورغم هذه التّبريرات المنمّقة، فإنّ هذا الأصل لا يحتاج إلى كثير من التّوضيح لبيان مخالفته للمنطق والعقل والحقيقة. إنّ الّذي تقدّمه هذه التّوضيحات النّصرانيّة لهذه العقيدة الخيالية، لا يعدو كونه إسقاطات بشريّة على السّاحة الإلهيّة المقدّسة، فكأنّهم اعتقدوا أنّ المسالة من قبيل المحكمة، ولابدّ من الانتقام من المجرم بأيّ طريقةٍ، ولكنّ المُنتقِم رَقَّ قلبه وأشفق على المجرم،

1- الخطيئة الأولى بين اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام:136.
2- قاموس الكتاب المقدّس، حرف الفاء، كلمة الفداء.
3- رومية:32،8.

وقرّر أن يعدم نفسه لإرضاء نفسه.

وعلى الرّغم من التّهافت، نحاول أن نطرح مجموعةً من التّساؤلات المنطقيّة:

بناءً على بيان القرآن للخطيئة المذكورة، فإنّ الله قد خلق آدم(عليه السلام)، لأجل إعمار هذه الأرض بمعرفته وعبادته، وعليه فإنّ أيًّا ممّا اعتبروه لعنة أبديّة، هو في الحقيقة ضمن النّظام التّكويني الإلهيّ المقدَّر منه جلّ وعلا.

ثمّ كيف يمكننا أن نوجِب على الله بمقتضى عدله أن ينزل العقاب على المخطئ، ثمّ نقبل أن يعاقب ابنه الّذي هو منه، ووريثه بحسب اعتقاد المسيحيّة، فهل يمكن أن يتصوّر معاقبة الطّهر المطلق بالمعصية؟

ثمّ كيف يمكن أن يجتمع الوجوب على الله، إنزال العقاب على الخطيئة، ومعاقبة غير المخطئ وتبرير المخطئين أنفسهم. فإن كان يمكن تبريرهم، وهذا لا يتعارض مع العدل، فلماذا هذه الرّواية الخياليّة؟.

ثمّ كيف يمكننا أن نتعقّل معصية لامحدودة، استدعت فداءً إلهيًّا على الرّغم من كونها قد صدرت من مخلوق محدود_ وهو آدم وزوجته_ فهل فعل المحدود يمكن أن يكون لا متناهيًا؟ فإن قيل إنّها اكتسبت إطلاقها من كونها معصية الله، فما بال المعاصي الّتي تصدر ممَّن هم أقلّ شأنًا من آدم(عليه السلام)؟ أليست أشدّ إطلاقًا من تلك؟ فهل يجب أن يقع الفداء عن كلّ معصية؟.

كما أنّنا يمكن أن نقول:»أنّ الله سبحانه وتعالى الرّحيم بعباده، لا يمكن أن يخلقهم ملعونين مخطئين على مستوى التّكوين، ولقد قرّر القرآن هذا الأصل في قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ**﴾[1].

ولمّا كانت عقيدة الفداء متقوّمة بصَلب المسيح(عليه السلام)،فإنّنا نستشعر حكمةً إلهيّة ممّا ذكره القرآن عن تلك الواقعة بالخصوص، فلقد عبرّت الآيات الشّريفة،أنّ السّيد المسيح(عليه السلام) لم يُقتل ولم يُصلب، وإنّما قد شُبّه للقوم، وعليه فإن كان الصَّلب لم يقع فلا سبيل لتلك العقيدة الخياليّة.

1- سورة فاطر:18.

وممّا تقدّم نستطيع القول، إنّ أركان الخلاص المسيحيّ في نفسها متزلزلة، فلا الرّؤية عن الخطيئة قادرة أن تدافع عن نفسها، ولا الفداء يمكن تعقّله. وبالتّالي، فإنّ الخلاص المنشود من قبلهم، والمبنيّ عليهما يصيبه ما أصابهما. وعلى الرّغم من أنّ أسس هذا الأصل العقائدي مهتزّة، فقد وقع نقاش وكلام فيمن يستحقّ هذا الخلاص، فمنهم من ذهب إلى حصريته بمن آمن بالمسيحيّة، واختلفوا فيما بينهم على كفاية الإيمان، أن لابدّ من أن يتبعه العمل، ومنهم من رأى عدم المانع من شموله لكلّ البشر ضمن قيود معيّنة، إلى ثالثٍ دعاإلى التّعدّديّة الدّينيّة.

■ ثانياً: الخلاص بين الحصريّة والشّمولية والتّعدّديّة الدّينيّة

قبل الولوج في بيان هذه الأوجه الثّلاثة، لابدّ من الإشارة إلى ما هو الّذي يخلّص بالمسيح، ومن خلال التّأمّل في نصوص العهد الجديد، نقف على ثلاثة توجّهات:

الأوّل: الّذي يخلّص بالمسيح هو خصوص الخطيئة الأولى، فيقول: «عالمين أنّكم افتديتم لا بأشياء تفنى بفضّة أو ذهب، من سيرتكم الباطلة الّتي تقلّدتموها من الآباء، بل بدم كريم كما من حَمَلٍ، بِلاَ عيْب ولا دنس، دم المسيح[1]..وفي هذه الفقرة من رسالة بطرس بيان، أن الخلاص إنّما حصل من خطيئة الآباء، وهي أَكْل آدم وزوجته من الشّجرة.

والثّاني: الخلاص يشمل جميع الذّنوب لمن كان قبل المسيح، المسيح الّذي قدّمه الله كفّارة بالإيمان بدمه، لإظهار برّه من أجل الصّفح عن الخطايا السّالفة بإمهال الله، لإظهار بِرّه في الزّمن الحاضر ليكون بارًّا، ويبرّر من هو من الإيمان بيسوع[2] «، وهذه الفقرة واضحة في شمول الخلاص لمطلق الذنوب من دون أن تخصّه بالخطيئة الأصليّة، وجعلته مشروطا بالإيمان بالمسيح.

والثّالث: شمول الخلاص لمطلق الذّنوب السّابقة للمسيح واللاّحقة له، وفيه قول بطرس: «كل من يؤمن به ينال باسمه غفران الخطايا[3]».

1- بطرس:18:1-19.
2- رومية3/24-25.
3- أعمال:10:43.

ومن خلال هذه الاختلافات في تحديد متعلّق الخلاص، انبثقت الخلافات في تحديد الخالصين، وماهي شروط الخلاص؟ فالّذي اعتقد بأنّ متعلّقه خصوص الخطيئة ذهب للقول، أنّ ارتكاب المعاصي بعد الإيمان يجعله يعاني في المطهّر، وهو الفترة الّتي لابدّ من الخضوع لها لتطهير المؤمن من أخطائه الدّنيويّة، لكي يتبرّر وينال الخلاص بالمسيح. وكانت هذه مقدّمة لصكوك الغفران، والّتي أُقرّت 1215 ميلادي، فهم كانوا يمنحون الصّكوك لتخليص المسيحيّين من عذاب المطهّر كما يسمونه.

1. الخلاص الحصري

يعتقد أصحاب هذا الاتجاه أنّ الخلاص بالمسيح وحده، وتعد الارثوذكسيّة والكاثوليكيّة الطّائفتين الأساسيتين المعتقدتين بهذه الحصريّة، ويتحقّق للإنسان ذلك من خلال الإيمان بيسوع المسيح.وهؤلاء أيضا يعتقدون أنّ المسيح كان مخلّصًا حتّى لأنبياء بني إسرائيل الّذين سبقوه أمثال، إبراهيم وموسى عليهما السّلام، ويبرّرون ذلك بانّ قديسيّ العهد القديم، كانوا قد أخبروا من قبل الله، بأنّه ستغفر ذنوبهم.ففي العهد الجديد «هكَذَا الْمَسِيحُ أَيْضًا، بَعْدَمَا قُدِّمَ مَرَّةً لكَيْ يَحْمِلَ خَطَايَا كَثِيرِينَ، سَيَظْهَرُ ثَانِيَةً بِلاَ خَطِيَّةٍ لِلْخَلاَصِ لِلَّذِينَ يَنْتَظِرُونَهُ»[1]. وفي يوحنا « لأَنَّهُ هكَذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، لكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ. 17 لأَنَّهُ لَمْ يُرْسِلِ اللهُ ابْنَهُ إِلَى الْعَالَمِ لِيَدِينَ الْعَالَمَ، بَلْ لِيَخْلُصَ بِهِ الْعَالَمُ. 18 اَلَّذِي يُؤْمِنُ بِهِ لاَ يُدَانُ، وَالَّذِي لاَ يُؤْمِنُ قَدْ دِينَ، لأَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ بِاسْمِ ابْنِ اللهِ الْوَحِيدِ[2]. في هذه العبارات من العهد الجديد مضافًا،إلى إطلاق كون المسيح هو مخلّص العالم، كذلك إشارة إلى الحصريّة، وأمّا بالنّسبة لمن جاء بعد المسيح، فإنه يكون معقولا، فمن آمن به يكون مستحقًّا للخلاص، من لم يؤمن لا ينال ذلك، ويبقى السّؤال بالنّسبة لمن كان في زمن المسيح عليه السلام، فهم يرون بأنّ المسيح أخبر أتباعه منذ البداية أنّه سيكون فداءً لخطاياهم.

ومن الواضح لكلّ متأمّل أنّ أصل المشكلة كامنٌ في تصويرهم للخطيئة، وهو ما بين ضعفه وقلّة حيلته. ولكن فيما يرتبط بهذه القضية، وخصوصا معتقدهم في تأخير الخلاص بالنّسبة

1- عبرانيين:9-28.
2- يوحنّا:3:16-18.

للمؤمنين السّابقين للمسيح، ففيه سؤال مهمّ وهو أنّ أولئك الأنبياء، إذا لم يكونوا قد نالوا غفران الله، فكيف كُلّفوا بهداية النّاس؟ ثمّ لو كان خلاص أقوامهم مرتبط فالفداء على ما تمّ بيانه، فلماذا لم نرَ إشاراتٍ واضحةً في العهد القديم؟ وخصوصا أنّ الهدف الأساسيّ من عمل الأنبياء، هو تخليص النّاس من الظّلمات إلى النّور، ولو قيل بأنّ هناك إشارات من قبل الأنبياء السّابقين إلى المسيا[1]. والقصّة فيها إشارات واضحة، أنّ الّذي كان ينتظره بني إسرائيل، وعلى لسان المرأة، هو النّبي وليس ابن الله الّذي سيموت عنهم، فالمسيا الّذي بشرّت به التّوراة أو العهد القديم، هو نبيّ سينُقذهم من الانحرافات، ويُعيدهم إلى جادة الصّواب، وهم مطالَبون بالإيمان.وهذه سنّة سار عليها كلّ القادة الالهييّن، فيبشّرون بالقادة الّذين سيمارسون تغييراً جذريًّا في المجتمع، وقد أكّد المسيح دعواها، ولم يُنكر نبوّته، بل قال أنا هو النّبيّ الّذي تنتظرينه.

ولهذا لا يمُكننا أن نقول أنّ الأنبياء السّابقين كانوا مبتلين بوزر الخطيئة، كما فهم العهدين، وستأتي نظرة الإسلام لدور الأنبياء.

2. الإيمان يكفي أم لابدّ من العمل

رغم اتفاق الأعمّ الأغلب من المسيحيّين على حصريّة الخلاص بالمسيح، غير أنّه وقع خلاف فيما بينهم، فذهبت الأرثوذكسيّة إلى اشتراط العمل مضافًا إلى الإيمان ليتحقّق الخلاص،واكتفت البروستانتيّة بالإيمان فقط.وهذا ما اعتبره الأرثوذكس مخالفًا لتعاليم العهد الجديد، ولهذا نجد البابا«شنودة» في مقدمة كتابه يعالج أدلّة القائلين بكفاية الإيمان للخلاص تحت عنوان «عدم كفاية الآية الواحدة لفهم مراد العهد الجديد»، ويتطرّق إلى مجموعة من الفقرات من العهد الجديد ويناقشها فيقول: «ولكن الوضع السّليم هو أنّ إيمان هذا الشّخص هو مجرّد الخطوة الأولى، الّتي ستقوده إلى الخلاص عندما يعتمد باسم يسوع المسيح، وأيضا سيُقنع أسرته بالإيمان، ويكون فاتحة خير للأسرة، وهكذا يخلّص هو وأهل بيته... وأمّا الّذي لا يعمل، ولكن يؤمن بالّذي يبرّر الفاجر، فإيمانه يحسب له برًّا[2]...فهل تعني هذه الآية أن الله يبرّر الفاجر، إذا ثبت في فجوره دون عمل التوبة؟!حاشا. إذن لكي نفهم هذه الآية فلنضع أمامها آيات أخرى

1- يوحنا:22:3-25-29.
2- رو: 4: 5.

توضحها، لنبدأ بآية من نفس الرّسالة إلى رومية حيث يقول الرّسول[1]: «لأنّ غضب الله معلَن من السّماء على جميع فجور النّاس وإثمهم»[2].

وفي قبال هذا المذهب يرى أتباع الكنيسة البروتستانتيّة أنّ الإيمان وحده يكفي للخلاص،» الأعمال الرئيسيَّة للإيمان المخلِّص هي القبول، والاستقبال، والاتّكال على المسيح وحده للتّبرير، والتّقديس، والحياة الأبديَّة[3].

ورغم محاولة البروتستانتيّة الالتفاف على عدم دخل الأعمال بالخلاص، من خلال تعريفها للإيمان الكافي للخلاص بأنه:» هو قناعة يُنشئها الرّوح القُدُس بشأن حقِّ الإنجيل، وثقة بوعود الله الّتي قطعها في المسيح»(جي في فيسكو، عقيدة الايمان المخلص، موقع ائتلاف الانجيل).

إلّا أنّهم لم يفسّروا حقيقة هذه الثّقة، فإن كان مرادهم أنّها توجب عصمة المؤمن، فهو مخالف للوجدان، وإن كان يُراد بها عدم تأثير الأعمال السّيئة على مصير الإنسان، فهذا في نفسه يُعتبر تشجيعًا على الانحلال، وهو ما لا يرتضيه العقل البسيط، فكيف يصحّ نسبته إلى الله تعالى؟!

وعلى الرّغم من كون الأرثوذكس يُقرّون بعدم كفاية الإيمان لخلاص الإنسان، وأنه لابدّ من أن يلتزم بالأعمال الصّالحة،غير أنّه من الواضح أنّ تصويرهم للخلاص غير صحيح لابتنائه، أوّلاً على أصل خاطئ وهو الخطيئة النوعية، وثانيًا أنّه حصل بالفداء، وقد تقدّم الكلام فيه، وثالثًا توقُّف خلاص المؤمنين، منذ آدم إلى يوم القيامة، على الإيمان بأنّ المسيح صُلِب لأجل الخطيئة.

3.الخلاص الشّموليّ

في الحقيقة ليست النّظريّة الشّموليّة للخلاص عند المسيحيّين، إلّا محاولة تطويريّة للحصريّة المسيحيّة، ويمكن تصويرها بأنها البرزخ بين الحصريّة المطلقة والتّعدّديّة. وقد خرجت هذه النّظرية من رَحِم الكنيسة الكاثوليكيّة، كردّة فعل على التّطرّف الكنسيّ الّذي مارسته الكنيسة قبل حركة الإصلاح، ويمكن تعريفها بأنّها «نظرية خلاصيّة تعلم بأنّه على الرّغم من أنّ الله يُخَلِّص النّاس فقط بناءً على استحقاقات المسيح، إلّا أن ليس كلّ الّذين

1- 1:18.
2- البابا شنودة الثالث، الخلاص في المفهوم الأرثوذكس:16.
3- إقرار وستمنستر: الفصل الرابع عشر: الفقرة 2.

نالوا الخلاص قد عرفوا يسوع عن وعي أو سمعوا الإنجيل، يُخَلِّص الله أولئك الذين، بالرّغم من أنّهم لم يسمعوا عن يسوع، إلا أنّهم يستجيبون، بأفضل ما لديهم من معرفة دينية، لإعلان الله المتاح لهم.[1]

فهذه النّظريّة على الرّغم من أنّها لم تحصر الخلاص بالمسيح، ولكنّها لم تعترف بطريق آخر غيره للخلاص، غاية الأمر أنّها ميّزت بين الاستجابة الواعية، والتي تحصل من المؤمن بالمسيح في إطار شروط الكنيسة، وبين من لديه القيم الرّوحية ولكنه لم يستجب للكنيسة فيشمله نحو من الخلاص، لا لكونه على حقّ إنّما لكونه ملتزم بالحقّ من حيث لايدري، وهو ما اصطُلح عليه بالمسيحيّين المجهولين، ويُعتبرَ» كارل رانر(1904-1984) أوّل من ابتدع هذا المصطلح، والّذي كان له تأثير كبير على الكنيسة الكاثوليكيّة، الّتي تبنّت هذه النّظريّة بشكل رسمي في المَجْمَع الفاتيكانيّ الثّاني، حيث أصدر مجموعة من القرارات، وكان أحدها قرارًا خاصًّا باتباع الدّيانات الأخرى، وممّا ورد فيه الكنيسة الكاثوليكيّة لا ترذل شيئًا ممّا هو حق ومقدّس في هذه الدّيانات. بل تنظر بعين الاحترام والصّراحة إلى تلك الطّرق، طرق المسلك والحياة، وإلى تلك القواعد والتّعاليم الّتي غالباً ما تحمل شعاعًا من تلك الحقيقة الّتي تنير كلّ النّاس، بالرّغم من أنّها تختلف في كثير من النّقاط عن تلك الّتي تتمسّك بها هي نفسها وتعرضها. ولذا فهي تُبشّر وعليها أن تبشّر بالمسيح دون إنقطاع، إذ إنّه هو «الطّريق والحق والحياة»[2] فيه يجد النّاس كمال الحياة الدّينيّة وبه صالح الله كلّ شيئًا»[3].

ومن الواضح في هذا القرار أنّه يقدّم مجرد اعتراف بما يوافق التّعاليم الكنسيّة، ويدعو للتمسّك بالمسيح كطريق للخلاص الكامل.

ولابدّ من الإشارة إلىأنّ هذا القرار كان الهدف الأسمى منه، بحسب ماورد في مقدّمته، تبرأة اليهود من دم المسيح عليه السلام، ولكن الضّغط الّذي قام به أساقفة العرب آنذاك، قاد المجمعين إلى إصدار قرار حول الدّيانات الأخرى.

1- شموليّة الخلاص لدي سي اس لويس، موقع إلى الشّريعة إلى الشّهادة.
2- يوحنا:14:6.
3- المَجْمع الفاتيكانيّ الثّاني:1965.

4. التّعدّديّة الدّينيّة

تعتبر التّعدّديّة من أكثر الأطروحات الحديثة جدلاً في كلّ أطوارها، ابتداء من تحديد المفهوم وصولا إلى العرض، وبالتّالي المترقّب منها.

فعلى سبيل المفهوم، نراها تارةً تُضاف إلى السّياسة، وأخرى إلى المجتمع، وأخرى إلى الدّين. ومرجع هذا لكونها قُدِّمَت كعلاجٍ للصّراعات القائمة في المجتمعات البشريّة.

أمّا التّعدّديّة الدّينيّة والّتي هي محل البحث، فقد حصرها العلاّمّة» المِصباح» بثلاثة تقريبات:

الأوّل: التّعدّديّة الدّينيّة تعني التّعايش السّلمي بين أتباع الدّيانات المختلفة، مع الإقرار بوجود الاختلافات والتّباينات فيما بينها ولكن لابدّ من عدم السّماح بنشوب الصّراعات والتّشنّجات، وتوفير الأجواء المناسبة للعيش بسلام.

وهذا المعنى في الحقيقة، أقرب إلى التّنظير السّياسي منه إلى التّنظير المعرفيّ والدّينيّ، وذلك لكونه يقرّ بوجود الاختلاف والتّباين في التّعدد، ويُقدِّم علاجًا لبعض الآثار الّتي اعتُقِد بأنّها ناتجة عن ذلك الاختلاف.

الثّاني: التّعدّديّة الدّينيّة تعني قبول القراءات الدّينيّة المختلفة للجوهر الواحد.

وفي هذا الطّرح تنظيرٌ معرفيٌّ وديني، فهو من جهة يحاول أن يعطي الأصالة للقراءة الدّينيّة الخاصّة، ومن جهة أخرى يدّعي جوهريّة الحقيقة الدّينيّة ووحدتها، وهذا مردّه إلى التّناقض، وذلك أنّ هذه الحقيقة لا يمكن أن تُنتِج أفكارًا متباينة؛ فلو قلنا بأنّ التّوحيد، الّذي هو في الحقيقة جوهر الأديان، واحد فكيف يّعقل أن يُنتِج قراءات متباينة، كالتّوحيد عند المسلمين، والتّثليث عند النّصارى. وعليه فالتّعدّد في القراءات معلولٌ للتّعدّد في المقروء.

الثّالث: وهو يرى أنّ الحقيقة في نفسها متكثّرة ومتعدّدة، ولعلّه ردّة فعل على التّناقض الملحوظ في التّعدّديّة السّابقة، وهذا بين الضّعف لمخالفته للوجدان. فلو كانت الحقائق متعدّدة لَمَا بقيَ حجر على حجر، ولَمَا انتظم مجتمع، ولَمَا أُخِذ لمظلومٍ حقّ، والظّالم يدّعي كونه صاحبه[1]. وهذه العناوين الثّلاثة نراها في أطروحات» جون هيك»، المنظِّر لفكرة التّعدّديّة الدّينيّة في العصر

1- راجع: اليزدي،م: مجلة المحجّة، العدد صفر، ربيع الأول97:1422.

الحديث، وهو فيلسوف نشأفي بيت مسيحيّ متديّن، ولعلّنا نستطيع القول أنّ توجّهاته الفلسفيّة وقبلياته المسيحية، كان لهما الدّور الكبير في تنظيره للتّعدّديّة الدّينيّة على نحو خاصّ، أو دعوته للتّعدّديّة الاجتماعيّة والأخلاقيّة كذلك.

ويمكن أن نلخّص رؤيته بالقول:»إنّ الحقيقة ليست حِكْرًا على دين دون آخر، بل إنّنا نجدها في كل الأديان -وهذا المعنى الثّاني الّذي تقدّم- والّذي دفعه لذلك موقفه التّشكيكيّ بالحصريّة المسيحيّة، وكذلك محاولة منه لتفسير التّدين الحاصل بسبب صدفة الولادة. «حين تتعرّف على أُناسٍ من أديان أُخرى؛ فإنّ حالة تشويشٍ وارتباكٍ تبدأ تقلق وعينا، نحن ـ كمسيحيين ـ نقول: «إنّ الله محبٌّ للكون، وإنّه أبو جميع البشر وخالقهم، وإنّه يريد الخلاص الأقصى والخير الأكمل لكلّ البشر؛ لكنّنا بالمقابل نردّد الموقف التّقليديّ، بأنّ المسيحيّة هي طريق الخلاص الوحيد، ما يعني أنّ الغالبيّة العظمى من الجنس البشريّ ـ من الّذين عاشوا وماتوا حتى السّاعة، والّذين عاشوا قبل المسيح، أو عاشوا خارج مجال المسيحيّة ـ هم محرومون جميعًا من نعمة الله وحبّه...هل يمكن قبول الاستنتاج، بأنّ الله المحبة الّذي يريد الخلاص لجميع البشر يمنح الخلاص للأقليّة من البشر فقط؟ الّذين هم المسيحيّون دون غيرهم.؟..هل القول بأنّ الّذين وُلِدوا بنحو الصّدفة واللاّ اختيار خارج بيئة مسيحيّة، وذهابهم إلى الجحيم، وتقدير الله للأقليّة من البشر الّذين صادف أنهم وُلدوا مسيحيّين بأنّهم وحدهم ينالون فرصة الحياة الأبدية؟ هل هذا يتناسب مع عدل الله الّذي يفترض أن يعطي البشر فرصًا متكافئة ومتساوية لتحصيل طرق الخلاص؟ وهل هذا أيضاً منسجم مع حبّ الله اللاّمحدود للبشر ورغبته بخلاص جميع البشر... ؟ هل يُعقل أنّه بمجرد ولادتنا في قسم خاصّ من العالم نكون، نستحقّ شرف المعرفة الكاملة للحقيقة الدّينيّة، في حين لو أنّنا وُلدنا في مكان آخر لكان لدينا معرفة جزئية أو دونية للحقيقة»[1].

وفي الحقيقة إنّ مثل هذه التّساؤلات مشروعة، وذلك بناء على التّفسير الحصريّ الّذي كرسته المسيحيّة، وذلك لأنّها ربطت الخلاص بفكرتها الخاصّة، مدّعية أنّه الحقيقة الكليّة، ولم تربطه بالحقيقة الواقعية، وإلاّ لو كان النّظر منصبًا على الحقيقة فإنّه سيتجه اتجاهًا مغايرا.

1- راجع: قانصو، و: جون هك والتّعدّديّة الدّينية، مجلة التّفاهم، العدد: 82:45.

فالخلاص والنّجاة والسّعادة القائمة على الإيمان بفكرة غير عقلانية، وتشوبها الكثير من التّساؤلات، من الطّبيعيّ أن ينتج توجهات معارضة، ولمّا كان للقبليات أثر كبير في تكوين الوعي الفكري، وهو ما يقرّ به «جون هيك»، ويعتبر أنّ الولادة في بيئة معيّنة لها دور كبير في تشكيل المنظومة الفكريّة، فإنّ النّتيجة الحتميّة للصّراع الفكريّ الّذي عاشه هو هذا، وبالتّالي فإنّ التّعدّديّة لابدّ وأن تبتني أوّلًا على تحديد الموقف من الحقيقة، لا أن تقدّم كرفض لواقع.

وعلى الرّغم من نشوء تيارات فلسفيّة تدّعي نسبية الحقيقة، إلّا أنّنا نرى أنّ الإنتاج المعرفيّ يقوم، أوّلا على وحدتها وثباتها، وهذا ينطبق حتّى على القائلين بنسبيتها، وعليه فلابدّ من السّعي وراءها، وهذا السّعي لابدّ من أن يتحلّى بالعقلانيّة الصرفة. ومن هنا نلاحظ أن «جون هيك» حاول أن يضع يده على العنوان الجامع بين الأديان -وهو منسجم مع المعنى الثّالث، الّذي تقدّم ليقول بأنّ هذا العنوان الجامع كاشف عن وجود الحقيقة لدى الجميع، واعتبر أنّ هذا الجامع هو تلك القيم الأخلاقيّة المنبثقة عن الإيمان بالله، ودعا إلى ثورة وانقلاب جذريّ ضمن اللّاهوت المسيحيّ، نحو قبول الآخر وتحرّره من فكرة الخلاص الخاصّ للمسيحيّين، وانتقد المحاولة الخجولة بنظره، الّتي قامت بها الكنيسة الكاثوليكيّة في الاتّجاه نحو التّعدّديّة، معتبرا أنّها احترام للجنبة الموافقة للتّعاليم الكنسيّة، وعليه فهي احترام الكنيسة لنفسها في ثقافة الآخرين.

وهذا في نفسه لا إشكال فيه، وإنّما تقع المشكلة فيما لو كان هذا المبدأ، الّذي يعتبره الإنسان معيارًا غير مقبول عُقلائيًّا، فالكنيسة الّتي كانت تواجه الحقائق العلميّة بدعوى تفسيراتها للكون، لا يمكن لها أن تأخذ هذا الدّور، ولكن لو وُجِد معيار سليم يتعامل مع الحقيقة من وجهة سليمة، فإنّنا لا نستطيع أن نوجّه له هذا النّقد.

ومن هنا، نرى أنّ ما خلَصت إليه تعدّديّة» جون هك»، من دعوة الكنيسة إلى التّمحور مع الأديان الأخرى حول فكرة الله، هو بحدّ ذاته من أهمّ الأسس الّتي أشار إليها القرآن، ويمكننا أن نعتبر هذه الدّعوة منه، في حد ذاتها، إشارة الى وحدة الحقيقة بنظره من النّاحية النّظريّة، وعجز عن إيجاد مصداق عملي لها من الجانب العمليّ، وقد أشرنا إلى أن هذا العجز مرجِعه إلى تصوّر الحقيقة المسيحيّة، وعدم الموضوعيّة في قراءة الآخر.

ولذا فإنّ الإشكال الّذي طرحه الدّكتور قانصو، واعتبره من تحدّيات التّعدّديّة الّتي أشار

اليها «جون هك»، وهو النّظرة المختلفة لله في الأديان، في الحقيقة هو إشكال عن التّفسيرات المتعدّدة للأصل الدينيّ الفطريّ، ألَا وهو التّوحيد، ولذا فالحلّ كامن في محاكاة الفطرة السّليمة بدلا من التّحايل عليها.

من خلال ما تقدّم استطعنا أن نناقش تقريبين للتّعدّديّة تبناهما «جون هيك» ونظر لهما.أمّا التّقريب الثّالث وهو التّعايش السّلمي، فإنّه في جوهره بعيد عن التّعدّديّة، وهو حاجة ملحّة اجتماعية، والإيمان به لا يتعارض مع الانتماء الفكريّ والدّينيّ، وخصوصا الدّين الإسلاميّ.

■ ثالثا: الخلاص في المنظور الإسلامي

يؤمن الدّين الإسلاميّ، بأنّ الله الواحد الأحد الحكيم ليس من شأنه اللّغو والعَبَث، ولهذا فإنّ لخلق الإنسان حكمةً بالغة، ولقد أشار القرآن في قوله تعالى ﴿**وَمَا خَلَقتُ ٱلجِنَّ وَٱلإِنسَ إِلَّا لِيَعبُدُونِ**﴾(56:) إلى الهدف الأسمى من خلق الإنسان. ولفهم هذا الهدف لابدّ من معرفة المقصود من العبوديّة، وفي هذا الصدد، يقول الشيخ مكارم الشيرازي: « إنّ العبوديّة- كما تبيّن معناهافي كتب اللّغة- هي إظهار منتهى الخضوع للمعبود، ولذلك فالمعبود الوحيد الّذي له حقّ العبادة على الآخرين، هو الّذي بذل منتهى الإنعام و الإكرام، و ليس ذلك سوى اللّه سبحانه. بناءً على ذلك، فالعبوديّة هي قمّة التّكامل وأوْج بلوغ الإنسان واقترابه من اللّه»[1]!.

فالله سبحانه قد خلق الإنسان ليتكامل في سيره إليه، ومقتضى هذا أن يخلقه في أحسن حال وأحسن صورة، ولهذا عبرّت الآية الشريفة ﴿**وَلَقَد كَرَّمنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلنَٰهُم فِي ٱلبَرِّ وَٱلبَحرِ وَرَزَقنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلنَٰهُم عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّن خَلَقنَا تَفضِيلا**﴾[2]. وهذا التّكريم من قِبَل الله جلّ وعلا شامل للنّوع الإنسانيّ. فالله خلق الانسان مكرّما، وذلك بأن وهبه العقل القادر على معرفة الحقّ والباطل، والخير والشّرّ.قال العلاّمة الطّباطبائي في الميزان: «بنو آدم مكرمون بما خصّهم الله به من بين سائر الموجودات الكونية، وهو الّذي يمتازون به عن غيرهم، وهو العقل الّذي يعرِفون به الحقّ من الباطل، والخير من الشّرّوالنّافع من الضّارّ» [3].

1- ناصر مكارم الشيرازي، نا: الأمثل،134:17.
2- الإسراء:70.
3- الطباطبائي،م،الميزان:الميزان:13:156.

وبالتّالي يظهر جليًّا، أنّ الإسلام لا يعتقد بالخطيئة التّكوينية كما في العهدين، وإذا ما نظرنا إلى القضيّة من خلال القول بعصمة الأنبياء، يصبح الأمر أشدّ وضوحا، وهو ما تعتقده مدرسة أهل البيت عليهم السّلام. وعليه فالنّهي عن الأكل من الشجرة كان نهيًا إرشاديًّا، وما حصل من آدم عليه السلام لم يرقَ لدرجة المعصية، الّتي تُعدّ مخالفة لأمر الله تعالى، بل هو من باب مخالفته للأولى، وعليه فلا مبرّر لتضخيم هذا الفعل الصادر عنه، ليكون علّةً للفداء المزعوم.

والمحصَّل أنّ الله سبحانه لم يخلق إنسانًا ملعونًا، محتاجًا لكي يُكفَّر عن ذنب لم يرتكبه، بل خلق خلقًا مكرّمًا لأجل عبادته له، ولكي يتكامل في طريقه إليه.

1. دور الأنبياء تدريجيّ تكامليّ

لمّا كان الإنسان بعقله غير قادر على إدراك الطّريق الأمثل، للوصول إلى الهدف النّهائيّ، وهو رضا الله سبحانه وتعالى، فقد مَنَّ الله على الخلق ببعث الأنبياء، وكان الهدف المركزيّ لهم جميعًا هو هداية الخلق. وعليه فإنّ كلًّا منهم عليهم السّلام قد قام بالدّور المنوط به، في سبيل الوصل لهذا الهدف. وقد أكّد القرآن الكريم على هذه الحقيقة، من خلال قوله تعالى: ﴿**ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيهِ مِن رَّبِّهِ وَٱلمُؤمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَينَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعنَا وَأَطَعنَاغُفرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيكَ ٱلمَصِيرُ**﴾[1]، فهي واضحة، بأنّ الله لا يفرّق بين أحد من الأنبياء، في أصل المشروع الإلهي، والإسلام يؤمن بجميع الرّسل السّابقين، وأنّ من آمَن من أقوامهم بما جاؤوا به، فقد استحقّ ثواب الله وخلاصه من العذاب المهين. وعليه فإنّ الإنسان في عصرٍ من العصور مكلّف بعبادته سبحانه، انطلاقا من نفسه وذاته، ولكي يعبده حقّ عبادته، فإنّ حكمة الله تعالى، اقتضت بيان الطّريق الصّحيح من خلال الأنبياء، وواجب الإنسان في كلّ زمن أن يستجيب للرّسل، ومن يستجبْ فهو مؤمن.

وعليه فإنّ الإسلام من خلال هذا البيان، يرى أنّ الخلاص، وهو النّجاة والسّعادة الأبديّة، متحقّق بالإيمان بالله تعالى المتجلّي بخطّ القادة الإلهيّين، ومقتضى حصوله هو السّير في فلك الولاية الالهية، والخضوع للمشروع الإلهيّ، والالتزام بطاعة القائد الإلهي في كلّ زمن من الأزمانّ

1- البقرة:185.

2. النّبيّ الأكرم خاتم النّبيّين

ومن هنا، فلامعنى للقول بأنّ الأنبياء السّابقين للنّبي صلوات الله عليهم، لم ينالوا الخلاص والسعادة الأخرويّة، وأنّ خلاصهم مشروطا بظهوره، بل مقتضى الخلاص لذلك العصر هو الإيمان بدعوتهم والسّير وفق ولايتهم وقيادتهم. وهذا لا يُنافي تبشيرهم صلوات الله عليهم بظهور النّبي الأكرم صلوات الله عليه، فإنّ هذه البشارة كانت إعلامًا منهم، بأنّ الشّريعة الإلهيّة،والخطّ الإلهيّ، والوحي المقدّس، سيبلغ كماله مع النّبيّ الخاتم، قال الله تعالى: ﴿**وَمَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَد مِّن رِّجَالِكُم وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيما**﴾[1].

فالإسلام يعتقد بأنّ الشّريعة والوحي والاتّصال مع السّماء لتحقيق الهداية، قد خُتِم بالنّبيّ الأكرم صلوات الله عليه، وإذا ما لحظنا صفة أخرى اتّصف بها الإسلام وهي العالميّة والشّموليّة لكلّ جوانب الحياة، يصبح فهمنا لختم الشّريعة أَجلَى وأتمّ، ومن هنا فالخلاص إنّما يتحقّق من خلال الالتزام بهذه الشّريعة الخاتمة، وكلّ طريق آخر غيرها، هو في الحقيقة لا يؤدّي لتحقيق المراد الإلهيّ والهداية، وذلك لأنّ جميع الطّرق الأخرى بعد النّبيّ ليست طرقا إلهية.

3. الإمام استمرار للقيادة الإلهية

لقائل أن يقول، ما هو الفارق بين الإسلام والمسيحية؟! فكلاهما ربط الخلاص بنبيّ من الأنبياء، فأيّ معنى لِمَا تقدّم قوله من كون أنّ الهداية بحاجة إلى لطفٍ إلهيّ، وقيادة إلهية بعد ارتحال النّبيّ صلوات الله عليه؟؟! ولكن عندما نرى أنّ الرّسالة الخاتمة والعالميّة، قد وضعت نظامًا تكامليًّا لقيادة المشروع الإلهيّ، وذلك من خلال تأصيل الإمامة الإلهيّة، والّتي عبرّعنها القرآن الكريم بأنّ الدّين الإسلاميّ والدّين الإلهيّ قد كمل بها، كما في (المائدة:3). يتّضح طريق الخلاص الممتدّ من آدم إلى قيام الساعة، ومنه نفهم حقيقة الدّور المهدويّ في آخر الزمان كما في (القصص:5).. فالوعد الإلهيّ للمؤمنين هو التّمكين في هذه الأرض، فالله أوجد الإنسان فيها ليعبده ويقيم حكمه، ليستحقّ بذلك القرب منه، والخلاص والسّعادة الأبديّة في جنّات النّعيم، وهذا لا يكون إلّا من خلال حكومة الله في الأرض، المتجليّة بحكومة أنبيائه وأوليائه، وآخرهم المخلّص المهديّ عليه السلام.

1- الأحزاب:40.

الخاتمة

يمكننا بوضوح أن نقول، أنّ المشكلة الحقيقيّة الّتي أدّت بالنّصارى إلى هذا المذهب العقائديّ،حول هذا الأصل وغيره من الأصول والمبتنيات، الّتي يؤمنون بها ولم نذكرها، سببها التّحريف الّذي شَابَ الكتاب المقدّس بعهديه، وكونه كُتِب من قِبَل البشر وخصوصًا محلّ البحث، وماذكر فيه حول خلق النّبي آدم(عليه السلام)، فهذه اللّبْنة المهتزّة أدّت إلى تزعزع المنظومة بشكل عامّ. ومن النّتائج الّتي ظهرت لنا من خلال البحث:

- إنّ الخلاص رغم معانيه المتعدّدة في العهد القديم، قد استُعمِل للتّعبير عن أصل عقديّ في الدّيانة المسيحيّة، وهو النّجاة المتحقّق بفداء المسيح(عليه السلام).
- يرتكز الخلاص المسيحيّ على الرّؤية تجاه الخطيئة الأولى، والّتي اتخذتها المسيحيّة من العهد القديم، الّذي اعتبرها تكوينيّة شاملة للنّوع الإنسانيّ.
- يخالف القرآن العهدين في رؤيته للخطيئة الأولى، فهو لايراها تكوينيّة، وعليه فجذور الخلاص المسيحيّ المرتكزة عليها غير ملاحظة في الإسلام.
- تعتقد المسيحيّة، أنّ الخلاص لايمكن أن يتحقّق، إلّا من خلال الإيمان بأنّ يسوع المسيح هو ابن الله، المتجسّد المصلوب فداءً عن الإنسان، تحقيقًا للعدل الإلهيّ المناسب لحجم الخطيئة.
- لاملازمة بين الفداء والعدل الإلهيّ من جهة، ثمّ إنّ أصل الصّلْب لم يحصل، وعليه فالقضيّة سالبة بانتفاء الموضوع.
- تنوّعت النّظريّات المسيحيّة في تحديد دائرة الخلاص، والمذهب العامّ لهم يدور مدار الحصريّة على اختلافٍ فيه بين كفاية الإيمان وحاجته إلى العمل الصّالح.
- ظهر مؤخّرًا مذهبٌ شموليٌّ كدعوة متطوّرة في اللّاهوت المسيحيّ، كان بمثابة برْزَخٍ بين النّظريّة التّقليديّة الحصريّة والتّعدّديّة الدّينيّة، فهو يعتقد بأنّ الخلاص بالمسيح، ولكنّه يشمل الملتزمين بالتّعاليم المتوافقة مع الكنيسة في الأديان الأخرى، ويُعَدُّ المَجْمَع الفاتيكانيّ الثّاني هو المقنِن لهذه النّظريّة.

- تعتبر التّعدّديّة الدّينيّة التّصوّر الأجرأ عن الشّموليّة، لكونها اعترفت بالحقّانية النّسبية في الأديان الأخرى، ولكن مصير هذه النّظريّة هو حصول التّناقض والتّهافت.
- للاسلام رؤيته الخاصّة تجاه الخلاص والسّعادة الأخرويّة، والّتي ترتكز على إيمانه بالدّور التّكامليّ والتّدريجيّ للنّبوّات السّابقة للنّبي الأكرم ﷺ
- لمّا كانت النّبوّة المحمّديّة خاتمة النّبوّات، وخاتمة الاتّصال بالوحي، كانت هي الطّريق للخلاص.
- قدّم الإسلام أصلا يقضي لاستمرار المشروع الإلهيّ، والقيادة الإلهيّة نحو خلاص الإنسان وهدايته، وهو الإمامة الّتي تستمرّ حتّى تحقّق العدل الإلهيّ، والحكومة الإلهيّة، وعمارة الأرض على يد الإنسان الكامل.

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. الكتاب المقدس
3. ابن فارس، أحمد ، معجم مقاييس اللّغة، قم، مكتب الإعلام الإسلامي، 1404ه، لا.ط.
4. ابن دريد، محمّد بن الحسن، جمهرة اللّغة، دار العلم للملايين، بيروت، 1988م، ط1..
5. أحد رهبان برية القديس مقاريوس، الخلاص الثّمين، دار مجلّة مرقس، 2009،ط1..
6. شاهين، أميمة بنت أحمد، الخطيئة الأولى بين اليهودية والمسيحية والإسلام دراسة مقارنة، دار الزهراء الشرق، القاهرة، لات، لاط.
7. شنودة الثّالث، الخلاص في المفهوم الأرثوذكسي، مجلة الكرازة، القاهرة، 1988م،ط6.
8. الطّباطبائي، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسّسة النّشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم، 1417 ه، ط5.
9. عجيبة، أحمد علي، الخلاص المسيحي ونظرة الإسلام إليه، الافاق العربية،مصر، 2006م،ط1..
10. عدد من المؤلّفين، دائرة المعارف الكتابية، تحرير: وليم وهبة بباوي، دار الثقافة.
11. عدد من المؤلّفين، قاموس الكتاب المقدس، تحرير: بطرس عبد الملك، جون الكسندر طمسن،إبراهيم مطر.
12. الفاتيكاني الثّاني، المِجمع، قرار حول الديانات الأخرى، 1965.
13. الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، قم، نشر الهجرة، 1409هـ، ط2.
14. قانصو، وجيه، جون هك والتّعدّديّة الدّينيّة، مجلّة التّفاهم، العدد 45.
15. مصباح اليزي، محمد تقي، مجلة المحجّة، العدد صفر،، ربيع الأول 1422.
16. شيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل منشورات مدرسة الإمام عليّ بن أبي طالب(ع) قم، 1421 ه، ط1..
17. ميخائيل، لبيب، يقين الخلاص، مطبوعات الكنيسة المعمدانية الأولى، 1962م،ط1..
18. جي في فيسكو، عقيدة الإيمان المخلص، موقع ائتلاف الإنجيل،:»https://ar.thegospelcoalition.org/doctrine-saving-faith/«
19. إقرار ايمان: «arabic. HYPERLINK http://arabic.thirdmill.org/»